الطفل والقرصان

تأليف
د / حسام العقاد

رسوم
محمود الأعصر

مكتبة الإيمان بالمنصورة
أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

كانت المدينة الصغيرة تعيش فى سعادة وهناء، حتى وصل إليها رجل شرير، أطلق على نفسه اسم القرصان، وضم إليه جماعة من اللصوص وقطاع الطرق، وبدأ يفرض إتاوات ضخمة على أهل المدينة، ويسرق وينهب، ويعذب كل من يحاول الوقوف فى طريقه.

رجل واحد فقط هو الذى تحدى القرصان، ورفض دفع الإتاوة، وبدأ يشجع أهل المدينة على تحدى القرصان..

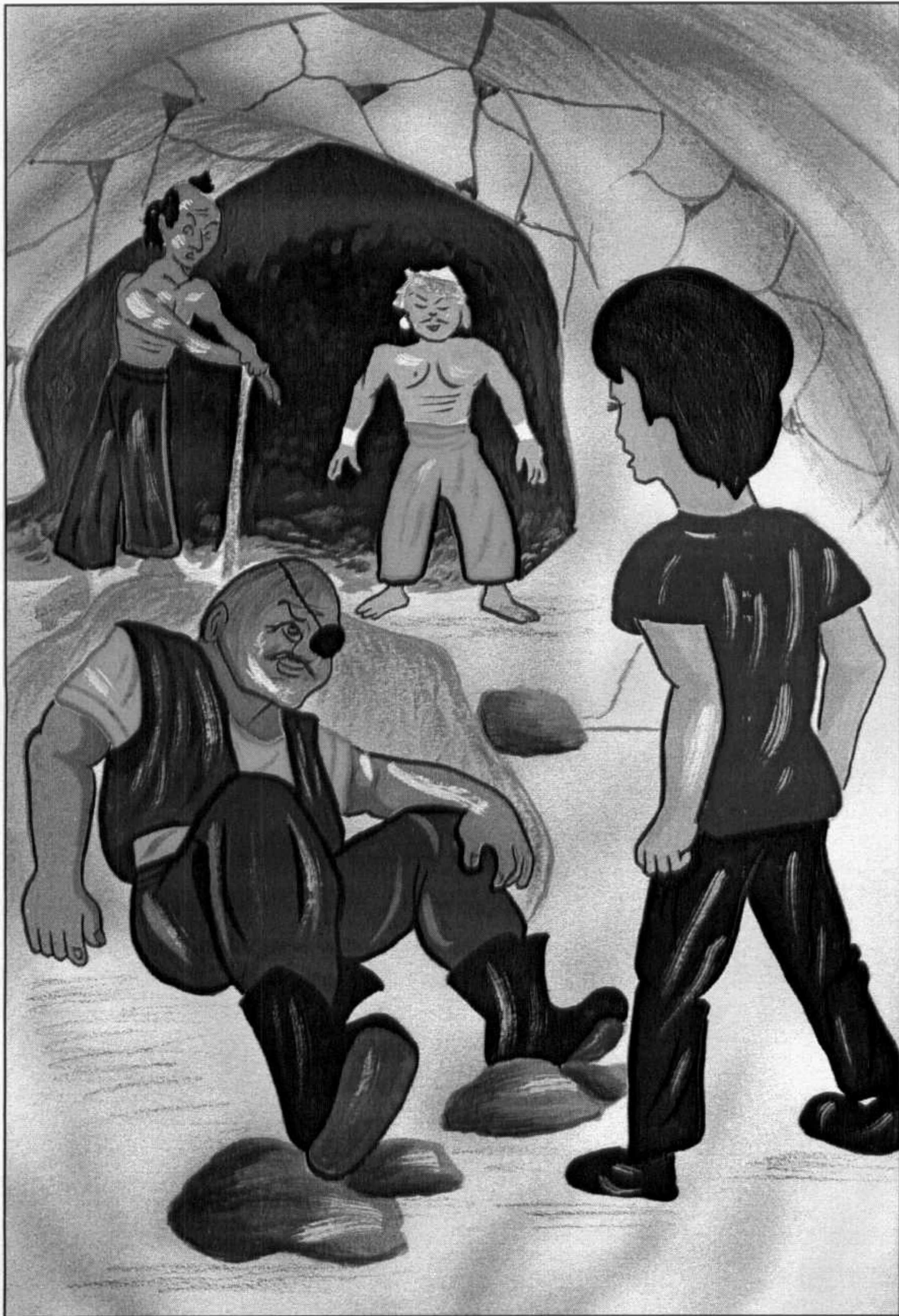
وثار القرصان، وقرر الانتقام من الرجل، وأمر أعوانه باختطاف ابنه الصغير الذى لم يتعد الثامنة من عمره.

وتسلل أعوان القرصان فى ظلام الليل، إلى منزل الرجل، واختطفوا محمد الصغير، وساقوه إلى كهف كبير، جلس فى نهايته رجل طويل القامة، عريض الصدر، مفتول العضلات، لم يشك محمد للحظة واحدة، فى أنه القرصان..

ودفعه الرجال ليقف أمام القرصان، فوقف منتصب القامة، مرفوع الهامة، ثابت النظرات، وقال:

- السلام عليكم ورحمة الله.. لم أحضرتنى إلى كهفك أيها القرصان؟

وتعجب القرصان، لقد اعتاد أن يثير الرعب فى نفوس أعتى الرجال، فما بال هذا الطفل الصغير يواجهه فى جرأة



وتحدى؟ لماذا ألقى عليه هذه التحية التى لم يسمعها منذ أن بدأ أعماله الشريرة؟

نظر القرصان إلى محمد، وسأله فى صوت صارم:

ـ ألا تخاف منى أيها الطفل؟

وفى جرأة وثبات أجاب محمد:

ـ أنا لا أخشى غير الله سبحانه وتعالى.

ثار القرصان ثورة عارمة، وقال غاضبا:

ـ ولكننى أستطيع انتزاع روحك وقتما شئت.

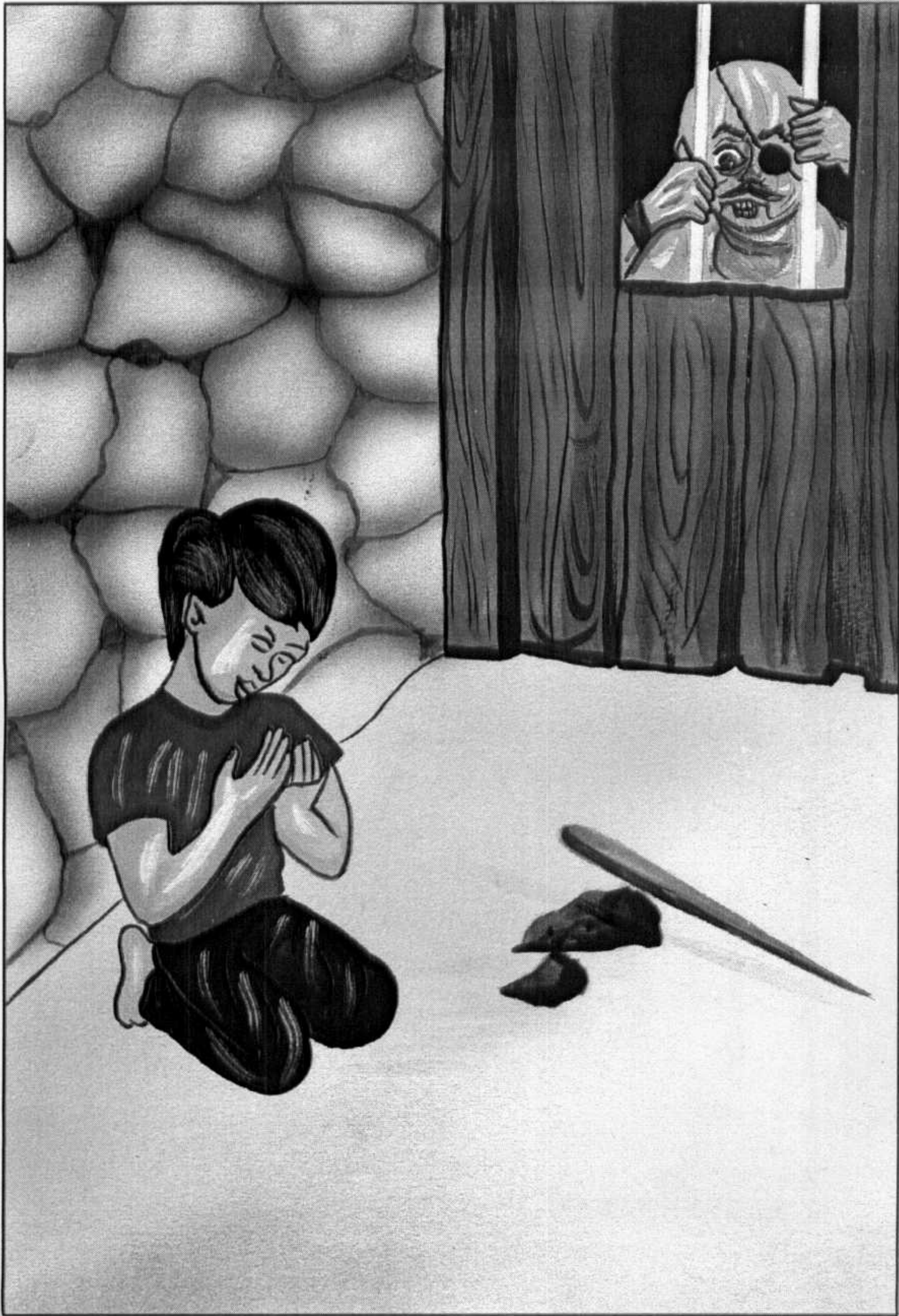
قال محمد فى إيمان:

ـ الأرواح هبة من الله للإنسان، وهو وحده الذى يستطيع أن يستردها.

اضطرب القرصان، فما تعود أن يجادله أحد قط، وصاح فى رجاله:

ـ خذوه بعيدا.

وقاده أعوانه إلى غرفة ضيقة، بينما جلس القرصان يفكر فى أمر الطفل الشجاع، ثم وجد نفسه يتحرك نحو الغرفة التى سجنه داخلها، وأطل عليه من نافذتها الصغيرة ذات القضبان، وأبصره يصلى فى إيمان وخشوع ويقرأ القرآن فى صلاته بصوت عذب تسلل إلى قلب القرصان، وجعله يختلج، ووقف يرقب الطفل وهو يفكر فى آخر مرة صلى فيها، لقد



كانت منذ أعوام طويلة، قبل أن يركب سفينة مع أصحابه، ويغرونه بمهاجمة السفن الأخرى وسرقتها، وأفاق من خواطره عندما انتهى محمد من صلاته، فقال له فى رفق:

- محمد، إنى لا أضمر لك شرا، سأطلق سراحك بمجرد أن يكف والدك عن مقاومتى، وتحريض الناس ضدى، ويدفع الإتاوة مثلهم.

قال محمد فى كبرياء لا يتفق مع سنه الصغير:

- لن يدفع أبدا، ولن يرضخ لك، حتى إذا قتلتنى.

عقد القرصان حاجبيه مندهشا، وقال:

- ولكنه يحبك، ولن يضحى بك، إنه يعلم أننى سأقتلك.

- لأنه يحبنى لن يرضى أن أعيش ذليلا، الموت أهون من حياة الذل الذى تذيقه لأهل المدينة.

وفكر القرصان، أى منطق هذا الذى يتحدث به الطفل، إنه لأول مرة يشعر أنه يواجه رجلا أقوى منه، وليس طفلا لم يتعد الثامنة من عمره.

وتركه محمد، وراح يتلو القرآن بصوته العذب الجميل، وسمعه القرصان يقول:

- **﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾**(١).

---

(١) سورة الزمر: الآية ٥٣



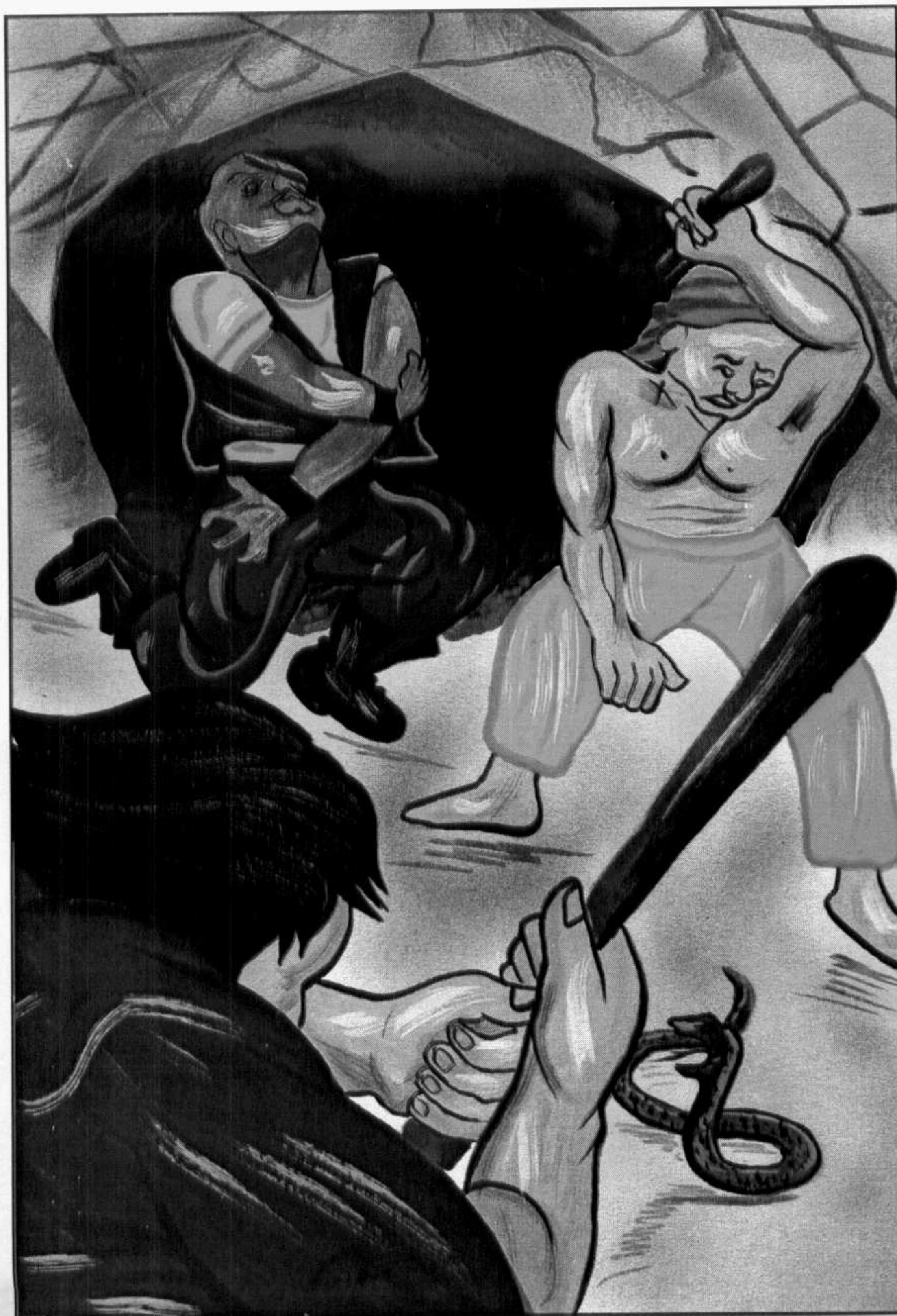
حاول القرصان أن يتركه ولكنه وجد نفسه عاجزا عن الحركة، كأنما شدت قدماه بسلاسل فولاذية إلى الأرض، فاستمع للقرآن، وشعر بقلبه يرق ويخشع، ونفسه تصفو، وروحه تسمو، حتى كادت الدموع تفر من عينيه، ثم صاح فجأة وهو يبتعد:

ـ لا.. لا..

وهرب من أمام الطفل، كأنما خشى أن يعود إلى الحق والصواب، فيزول سلطانه، ويفقد هيبته، ومرت الأيام، ووالد محمد يجمع الأهالى، ويحثهم على مقاومة القرصان، ويزيل الخوف من قلوبهم، والطفل فى سجنه الضيق يعبد الله، ويدعوه أن ينجيه، والقرصان يجد نفسه مندفعا نحو الطفل، ويظل بجواره ساعات طويلة، يسمع آيات الله، ويشعر أنه يتطهر من ذنوبه، وفى كل مرة يهرب بسرعة قبل أن يعلن توبته..

وذات يوم، بينما كان القرصان جالسا مع أعوانه يخططون لسرقة ضخمة، ومحمد أمامهم، ظهر ثعبان ضخم من أحد شقوق الكهف، واقترب من القرصان ولدغه، فصرخ متألما، فاندفع أعوانه نحو الثعبان وقتلوه، وصاح القرصان وهو يتألم:

ـ عالجونى بسرعة.. قبل أن يسرى السم القاتل فى جسدى.



ولم يمتثلوا لأمره، وقال أحدهم:

- سنتركه هنا ليموت، ونسرق وحدنا، ثم نعود لاقتسام الغنائم.

وصرخ القرصان مستعطفا، ولكنهم غادروا الكهف مسرعين، فهرول محمد نحو القرصان، الذى قال فى مرارة:

- اهرب.. قبل أن يعودوا.. ويقتلوك.

تقدم منه، وبدأ يعالجه من لدغة الثعبان، والقرصان ينظر إليه فى ذهول، ويقول:

- أبعد ما فعلته بك تنقذنى من الموت؟

- المسلم لا يترك رجلا يموت دون أن يحاول إسعافه، حتى إذا كان الرجل ظالما.

فرت دمعة من عينىّ القرصان وهو يقول فى خجل:

- أيقبل الله توبتى بعد كل ما فعلت؟

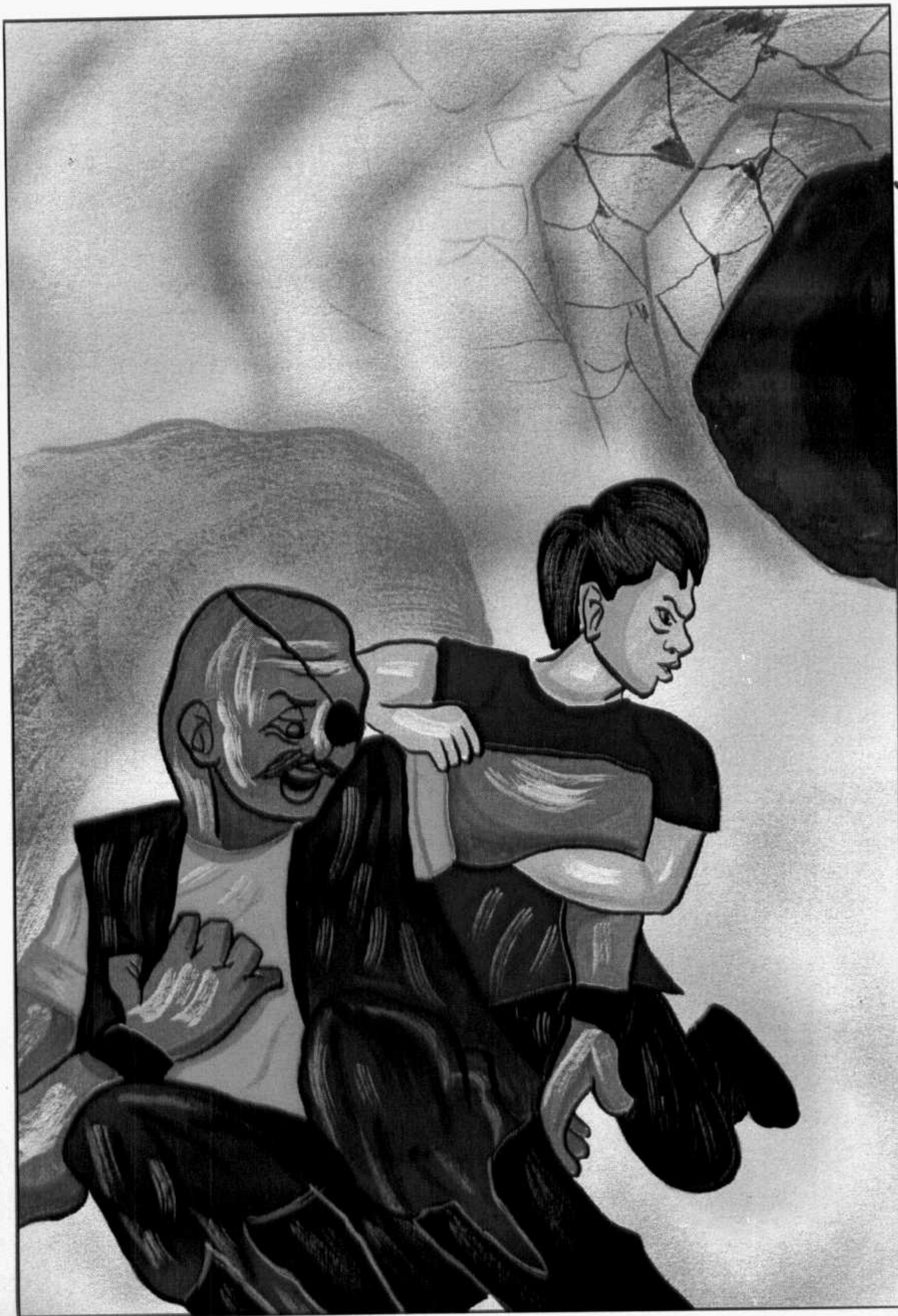
أجاب محمد فى حماس:

- طبعا، قال الله تعالى: ﴿**والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم**﴾[1].

وضمد جرح القرصان، ثم قال:

- قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيىء**

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٣.



الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

فالله تعالى يقبل توبة عباده، حتى تطلع الشمس من مغربها، وهى من علامات يوم القيامة.

ـ وقال ﷺ أيضا: «**إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[2].

والله يقبل توبة المسلم أثناء حياته، ما لم يغرغر، بمعنى قبل أن تصل روحه إلى حلقومه وهو يموت.

والله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة المسلم.

قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[3].

والنبى ﷺ يصور لنا الرجل وهو فى صحراء خالية تماما، ومعه دابة عليها طعامه وشرابه، وفجأة تختفى منه

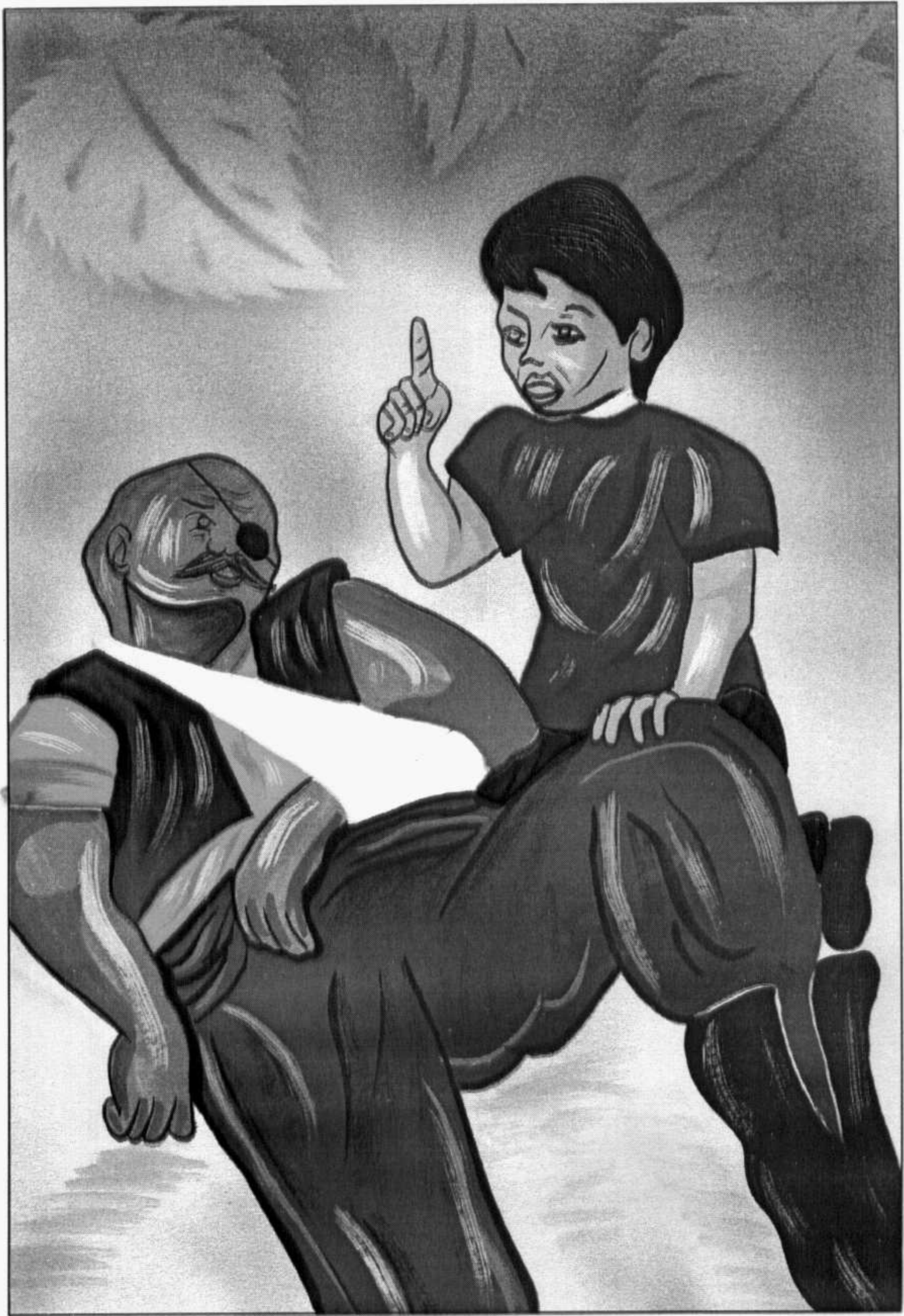
---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه الترمذى(٣٥٣٧).

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٣) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

الفلاة: الصحراء. **اضطجع**: نام. **خطامها**: حبل من ليف تربط به. **أيس**: يأس.



الدابة، ويصبح وحيدا فى الصحراء ويشرف على الموت والهلاك بعد أن يأس من عودة الدابة، وينام الرجل فى ظل شجرة، وعندما يستيقظ يجدها أمامه لتنقذه من الموت، ومن شدة فرحته أخطأ فى كلماته لربه، فقال: اللهم إنى ربك وأنت عبدى..

هذه الفرحة الشديدة الطاغية، الله يفرح فرحة أكبر منها بعودة المسلم إليه وإعلان توبته.

قال القرصان فى ندم:

- تبت إلى الله. اللهم اغفر لى.

ولكن لابد أن تتبع شروط التوبة.

- وما هى؟

- **الشرط الأول:** أن تكف عن معصية الله سبحانه وتعالى.

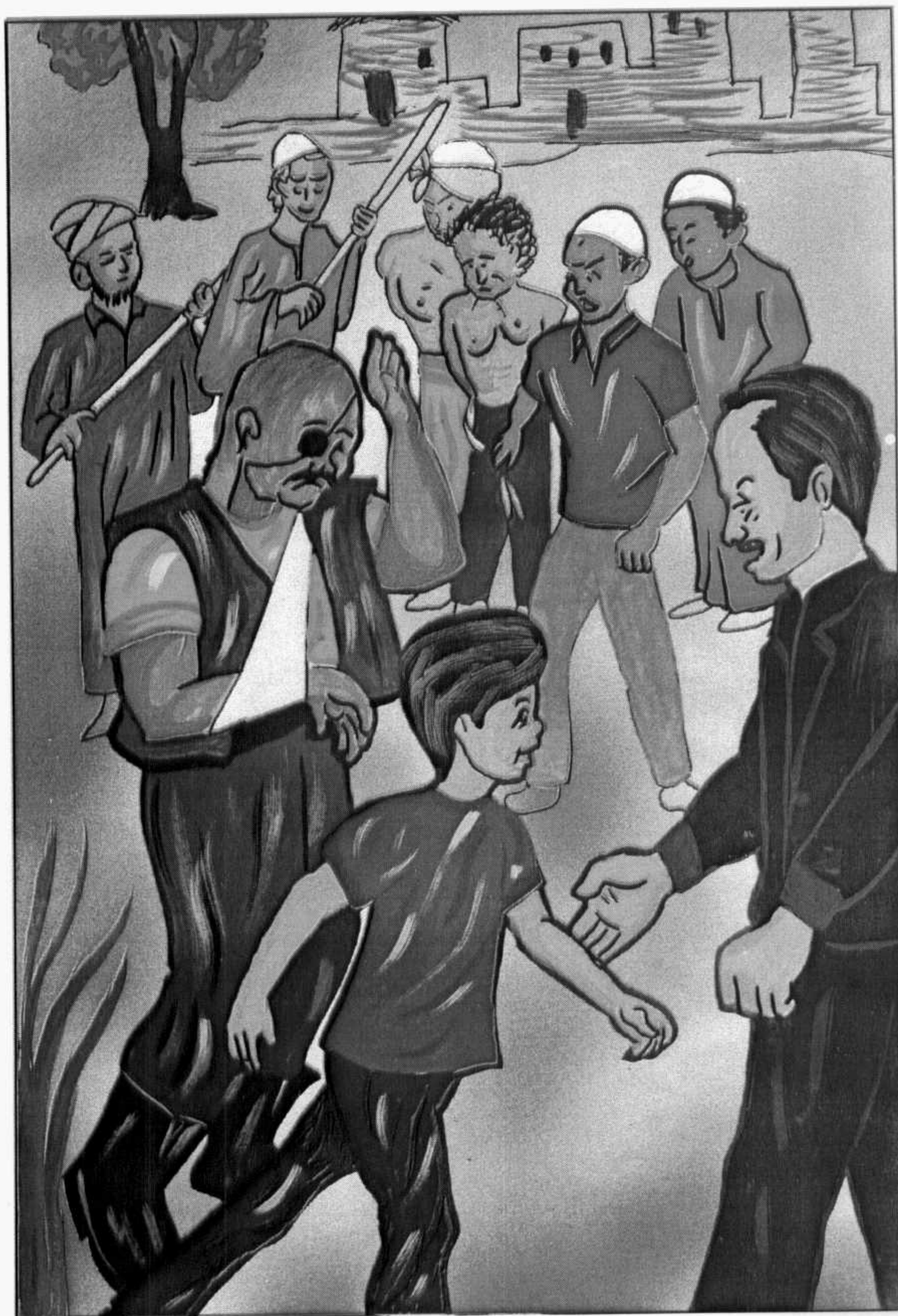
الشرط الثانى: أن تندم على ما فعلت.

الشرط الثالث: أن تصمم على عدم العودة إلى المعصية أبدا.

الشرط الرابع: أن ترد الأموال التى سلبتها من ضحاياك، وأن تستغفر من أسأت إليه.

قال القرصان فى حماس:

- سأعيد كل الأموال التى سرقتها من ضحاياى.. تبت إلى الله.. اللهم اقبل توبتى.



وفى نفس الوقت، كان والد محمد بمساعدة أهل المدينة، يهاجمون أعوان القرصان بعد أن زال الخوف من نفوسهم، ويقبضون عليهم.

وفوجىء الجميع بالقرصان يقبل نحوهم مع محمد، ويعلن توبته أمامهم، ويقدم إليهم كل ما جمعه من الحرام، ويقول:

ـ لقد ظلمتكم كثيرا.. وأسأت إليكم.. لقد أعدت إليكم كل ما أملك.. وأقبل حكمكم على.. إما أن تحاكمونى.. أو تقبلوا توبتى.

واجتمع أهل المدينة وقال والد محمد:

قال الله تعالى: **﴿وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾**(١) هذا هو كلام الله عز وجل، فهل تقبلون أنتم توبته؟

وقرر أهل المدينة العفو عن القرصان بعد أن تاب توبة صادقة.

وتبدلت حياته تماما، فصار رجلا صالحا، يعمل بجد، ويدعو إلى الله، واستمرت صداقته للطفل الشجاع الذى هداه بفضل الله سبحانه وتعالى إلى الحق والإيمان.

تمت بحمد الله

---

(١) سورة طه: الآية ٨٢.

رقم الإيداع ٨٧٩٥ / ٩٨